

روابط الجنسية والحياة الملية

وفلسفة الاجتماع البشري

وعندنا في خاتمة المجلد السابع بأن نعود في هذا المجلد الى نشر المقالات الاجتماعية والفلسفية وذكرا هناك بعض الموضوعات التي سبقت الى الذهن عند كتابة تلك الخاتمة ومنها الحياة الزوجية والحياة الملية وكذا الوطنية . وقد حالت الحوادث دون الاكثار من المقالات وسبح القلم سبباً طويلاً في بحث الحياة الزوجية فكانت ست مقالات ورأينا أن نقفي عليه بالكلام في الحياة الملية وكذا الوطنية بعد تمهيد في فلسفة الاجتماع البشري بالايجاز فنقول

خلق الانسان ليعيش مجتمعاً يتعاون أفراده على الأعمال التي هي قوام حياتهم الشخصية والنوعية واظهار استعدادهم الانساني في استعمار الأرض واظهار أسرار الكون فأعني بالاجتماع ما هو أوسع من اجتماع الزوجين الذي يشاركهم فيه سائر أنواع الحيوان ومن اجتماع النحل والنمل وتعاون أفرادها على ما به حفظ حياة نوعيهما فالحياة الزوجية ليست خاصة بالانسان ولا الحياة الأهلية (العائلية) فمن كان لا يشعر بفائدة لنفسه الا أنه يعمل لياكل ويطعم من يعول من أهل وولد فحياته ان كانت أوسع من حياة الطير فهي لا تصل الى مرتبة بعض الذباب والحشرات (النحل والنمل) فان لهذين النوعين من التعاون على الأعمال المشتركة ما تقصر عنه همة كثير من الناس فما أحقر من يرى وجوده أضيق من وجود الذباب والحشرات

لا تفاوت بين أفراد نوع من أنواع المحلوقات تعلمه كالتفاوت بين أفراد البشر يتسع وجود زيد منهم فيملاً الآفاق، ويضيق وجود عمرو حتى يضيق به قفص جسمه، يشمر ذلك بروحه الكبيرة أنه خلق لينهض بأمة كبيرة أو ليفيد جميع الامم، ويحار هذا في خدمة جسده، ويرى نفسه عاجزة عن تنفيذته وتوفير لذته، فاذا زدوج فصار له بيت كان همه أكبر، لأنه أعجز عن سياسته وأضر، وبين هذين

الطرفين سواد عظيم لكل منهم سهم من سعة الوجود على قدر قوة الانسانية فيه وضعفها فاذا كثر أصحاب السهام العظيمة في أمة من الأمم اتسع وجودها يبسط سلطانها على الأمم التي قلت سهامها وخف بها ميزانها فينقبض وجود هذه بمقدار اتساع وجود تلك فاما أن تعتبر فيخرج أفرادها من مضيق الحياة الشخصية الجسدية الى مجبوحة الحياة الاجتماعية حتى يتقلص ظل غيرهم عنهم واما أن يكونوا غداء للغالب لا بقاء لهم الا باستبقائه اياهم لحاجته وقد ينكش وجودهم ويتقلص حتى يضمحل ويفنى كأن لم يكن شيئاً مذكوراً

أين المصريون الأقدمون، أين السكلدانيون والأشوريون والبابليون، أين الرومان والفرس الأولون، أين هندو أمريكا المريقون،؟ منهم من اندغم وجوده في وجود آخر أوسع منه وأقوى، ومنهم من انقرض وجوده فلا تحس منهم من أحد ولا تسمع لهم ركزا، سنة الله في التكوين والتسكين، «ان الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين»، الذين يتقون أسباب الفساد والزوال، ويصلحون في الأرض بالأحكام والأعمال، «ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، واذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من والٍ»

قلنا ان وجود الشخص الواحد يتسع ويضيق بمقدار معنى الانسانية في روحه قوة وضمفناً، وان وجود الأمة ينبسط وينقبض بحسب كثرة أصحاب السهام العظيمة من سعة الوجود فيها، فهذا هو معنى الحياة العزيزة في الأفراد وفي الأمم فكامل الشخص انما هو في كونه يعمل للامة التي يعتز بعزتها، ويهون بهوانها وضمفنها، وكامل الامة انما هو في حفظ ما به كانت أمة وبسطه بحمل وجود غيرها تابعاً لوجودها ما به تكون الامة أمة معنى يوجد في كل فرد من أفرادها يربط بعضهم ببعض حتى يكون الجمع الكثير به واحداً وقديمه عنه بالجنسية وهو النسب والبيئة والوطن واللغة والدين والحكومة وأنت ترى أن بعض هذه المعاني أوسع من بعض فأول اجتماع كان بين البشر يتعاون به أفراد كثيرون على مصلحة الجميع هو اجتماع القبائل البدوية التي تنسب الى أب واحد ثم كانت دائرة الاجتماع تتسع في البشر فتكبر الهمم وتعاور النفوس لشموورها بسعة وجودها وما هي مطالبة به من العمل لحفظ

كون كبير واسع. وكلما اتسعت دائرة الاجتماع اتسع منها فائدة البشر فبعد أن كان امتياز القبائل والشعوب لاجل التماكر والتعابن، صار باتساع ذلك المعنى لأجل التعارف والتعاون، كما قال تعالى «وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا»

إذا كانت الجنسية في الأمة هي النسب كانت بسطتها في الوجود بطيئة. كذلك الوطن إذا كان بلداً محدوداً كمصر أو الشام أو العراق. وليس نشر اللغة وجعلها جنسية بالامر السهل ومثلها الدين إذا كان خاصاً كاليهودية. وأما الحكومة فهي أوسع من جميع ما ذكر وبها تكونت الأمم الكبرى كإمبراطورية الإسكندر والإمبراطورية الرومانية في الزمن الماضي وكالسلطنة العثمانية والحكومات الاستعمارية في هذا الزمان. ولكن الجنسية في الحكومة لا تعد جنسية حقيقية إلا إذا كانت الشريعة أو القوانين التي يحكم بها الرعايا المختلفون في النسب والوطن واللغة والدين مبنية على قواعد العدل والمساواة بينهم وكان القائمون بها من لفيفهم لا من طائفة معينة منهم. على أن هذا الشرط الأخير إنما اشترطه الطوائف والشعوب الراقية في معارج الاجتماع دون سواها وإن من الشعوب ما يغلب فيها الشعور بأنها خلقت لتكون محكومة من الغرباء وأن جنسها لا يصلح للحكام.

يكون اتساع محيط الجنسية نافعا للبشر ما قصد بها تكثير سواد أهلها ومشاركة كل من يدخل فيهم لهم في جملة مزاياهم. ومتى قصد الشعب الاستئثار بالمنافع دون من يمتد وجوده اليهم وينبسط نفوذه فيهم كان آفة على سائر الشعوب لا يمدل فيهم ولا يمكنهم من الارتقاء في معارج الكمال الإنساني فسنة الله في كمال الشعوب والامم ونقصها كسنته في الأفراد نقص كل منها بالآرة والغلو في حب الذات حتى لا يتحرك حركة المنفعة ذاته وكمال كل منها بالقصد الى نفع غيره وايصال الخير اليه وجعل المنفعة الذاتية تابعة للمنفعة العامة

فالنسبة لما تقدم من القواعد أن أكمال الجنسيات وأنفعها للبشر ما كانت أعم وأشمل للطوائف والجمعيات المختلفة في النسب والوطن واللغة والدين والحكومة بأن يقصد بها الخير للجميع والمساواة بينهم في الحقوق وعكسهم من الرقي الى ما أعدتهم له الفطرة البشرية من الكمال الاجتماعي. وإنما لجنسية يتحسر عليها نوابغ

الحكماء وهي موجودة في الملة الاسلاميّة وان كان المسلمون من أبعد الناس عنها فهذه الملة هي التي عرفها كتابها العزيز بقوله : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » : الملة الاسلاميّة تساوي بين المختلفين في الأنساب والأوطان والأديان وتسمح لمن يدخل في حكمها وهو على دينه ان ينشئ في بلادها محاكم لأهل ملته وأبناء جلدته فلا تازمه بأحكامها الزاماً فان هو اختار حكمها بنفسه ساوت بينه وبين أقرب الناس من بنيتها وأعلى أفرادها مكانة فيها . فهي تدعو جميع البشر الى التعارف والتآلف في ظل حمايتها وانه لظل ظليل يباح للمستظل به كل شيء - الا المحاولة ازالته أو ازالة فائدته للناس وهي دفع الشر والأذى عنهم وتقريب الخير منهم مع حفظ حريتهم في أديانهم وأعمالهم التي لا تضر سواهم . هذا ما تبذله لكل من قبل حمايتها، واستظل برايتها ، ثم انها تختص من قبل هدايتها في الدين بأخوة روحية، أخص من هذه الاخوة الانسانية، لانه يشارك أهلها فيما يؤهلهم لسعادة الحياة الأخرى، فهو أقرب اليهم بالروح ممن لا يشاركون الا في سعادة الحياة الدنيا،

هذه الجنسية هي نهاية ما يمكن وضعه لسعادة البشر كلهم في هذه الحياة ولكن الناس لما استعدوا لها تمام الاستعداد لذلك لم يرعوها حق رعايتها ونفتقد أن سيعودون اليها في يوم من الأيام . تقول يهودون اليها عوداً ، دون يقصدون اليها قصداً ، لانها قد وجدت في الجملة مدة قليلة على عهد الخلفاء الراشدين فرقص لها العالم الانساني وأقبلت عليها شعوبه أيما اقبال ثم طفق نورها ينخبو بما أفسد فيها الامور ومن بعدهم ولكنه كان على ضعفه أفضل عند جميع الامم من كل ما عداه لذلك كان يخرجهم باختيارهم من جنسياتهم اخراجاً، فيدينون لها شعوباً ويدخلون فيها أفواجاً،

كانت حكومة الخلفاء الراشدين حكومة عسكرية لأن الدعوة لم تكن أمناً، والسلطة لم تكن استقرت، وكانت على ذلك حكومة عادلة رحيمة فضلتها كل من ذاق حلاوتها على ما عهد من قومه . وكانت حكومة الامويين في الشرق والغرب وحكومة العباسيين في الشرق اسلامية في أكثر الفروع ودون الاصول وأعني بالاصول قواعد

الحكومة الأساسية كاتتخاب الحاكم العام وإلزام الأمة بالشورى واتباع الشريعة وكانت على ذلك أفضل من جميع الحكومات التي عرفها الناس قبل الراشدين . ولو وجدت الحكومة الإسلامية على حقيقتها في دولة آمنة مطمئنة لاختارها كل من عرفها من الراشدين، حتى تكون ملاذ البشر أجمعين،

سيقول الجاهلون بحقيقة الإسلام ان هذا من غلو المسلم المدعن وياتون على ذلك ببعض الاعمال والتقاليد التي انتقدت على المسلمين والتي لعل علم بشيائهم لكثرة ما بلوت من أمثالهم وما كشف تلك الشبهات عليّ بعير ولكن القول قلم يقنع الجاهل لاسيما اذا كان متعصباً لرأيه ، غير محيط بتفصيل ما عند خصمه،

لست أعجب ممن نشأ في دين يعادي الإسلام اذا هو أنكر مزايا الإسلام الظاهرة ، وأصوله الواضحة ، بله المزايا التي فقدت من المسلمين ، فلا أثر لها الا في ثنايا آيات الكتاب المبين ، إنما عجبني ممن نشأ في المسلمين وهو منهم ثم هو يجمل مكان الجنسية الإسلامية الواسعة العامة لجميع الشعوب والطوائف، الشاملة لجميع الخيرات والحوارف، فيدعو الى جنسية الوطن كبعض أحداث المصريين أو جنسية اللغة والنسب كبعض جهلة الترك . فمثل هؤلاء كمثل من يهلم مصرا ويبنى قصرا، بل هم أضيق وجودا وأضعف فكرا،

يعد في مثل هذه الدعوة القبطي في مصر والأرمني في بلاد الترك والاسرائيلي في فلسطين لأن السلطة في أيدي غيرهم فلهم الحق في أن يطلبوا مساواتهم بسائر أبناء بلادهم . على أن وجود هذه الطوائف القليلة العدد أوسع من وجود دعاة الوطنية والجنسية فانهم يطعمون في الاستقلال بلاد أكثرها لغيرهم فهم يطلبون سعة وامتدادا، ودعاة الوطنية والجنسية منا يبغون ضيقا وتقلصاً

لولا جنسية النسب لما تمزقت السلطة الإسلامية في ريمان شبابها فكانت عباسية في الشرق أموية في الغرب فاطمية في الوسط والشريعة واحدة والملة واحدة ولما كان بين ذلك من ملوك الطوائف ما كان . لولا جنسية اللغة والوطن لما تفرق المسلمون بعد ذلك الى دول وممالك كالتركية والفارسية والافغانية وما كان قبلها في الهند من السلطنة التيمورية وغيرها في المشرق وكالعبانية في شمال افريقية

الغربي وغير ذلك مما كان في قلب هذه القارة الاسلامية التي استولت عليها أوروبا الا قليلا. ولوعقل المسلمون معنى الحياة الملية، لكانوا في هذه الممالك كلها أحسن نظاما ووحدة من الامبراطورية الانكليزية

ان الحياة الوطنية الصحيحة هي جزء من الحياة الملية الاسلامية فاذا حيي المسلمون في قطر ما حياة اسلامية فبشر جميع دعاة الوطنية الصحيحة من أهل الملل التي تعيش معهم بجميع ما يطلبون من عدل وحرية ومساواة وتعاون على دره المضار وجلب المنافع وكل ما به تسمر البلاد وتزيد خيراتها، وبشر المسلمين منهم بأن سيكونون مركز الجاذبية العامة لجميع الشعوب المسلمة في الارض ثم مشرق المدينة الفضلى لجميع العالمين

يا لله العجب! ثلاث مئة مليون أي ثلاث مئة ألف ألف من المسلمين قد اكتظ بهم قلب الارض من مرا كش الى الصين ولا تجد لهم قوة ولا سلطة عزيزة لا يعبث باستقلالها عايت، ولا يلبس شرفها لامس، أرأيت لو كان لهم حياة مليية، تشعروهم بحقيقة الأخوة الاسلامية، أما كان يمتز بعضهم ببعض ويمد بعضهم بعضاً ولو امدادا معنوياً؟ أكان يسهل على الناقم من شعب من شعوبهم أن ينتقم منه بغيًا وعدوانًا وهو يعلم أن قلب الارض يخفق للعدوان عليه خفقانًا لا يستهان به؟

ما هو المرض الذي أضعف في المسلمين هذه الحياة الملية العليا؟ هو عصبية الجنس واللغة والوطن وهي العصبية التي حاول الاسلام القضاء عليها فلما غير الملوك شكل حكومته الى ضدها تمكنا من محاربهه بجنسياتهم فما أفسد علينا ديننا ودينانا الا الملوك المستبدون وأعوامهم من علماء السوء وتلك سنة قد دخلت في كل أمة قال فيها الشاعر

وهل أفسد الدين الا الملوك وأحبار سوء وورهبانها

هل من سبيل الى اضعاف هذه النزعة الجنسية الخبيثة وإمطاة هذه النزعة الوطنية الحقاء من طريق الحياة الملية الاسلامية واشعار المسلمين في جميع الأقطار بحقيقة الرابطة التي تضم بعضهم الى بعض اشعاراً بملك الوجدان وتصدر عنه

الأعمال التي توثق هذه الرابطة وتؤكد ما فيها من حقيقة الأخوة مع بقاء كل قوم منهم في بلادهم وتعاونهم مع سائر أهلها على عمارتها بالعدل والاحسان والتوادد والاخلاص؟ السبيل واضحة وهي جبل الله المتين وسراج المنير ولكن السياسة والجهل عقبتان كودان من دونها يصدان السالك عن المضي فيها ولا يذلل المقبات الا هم الرجال فأين الرجال؟

السياسة المانعة من حياة المسلمين المليية نوعان سياسة أجنبية وسياسة مسلمية وان أهل البصيرة من المسلمين لعل خلاف في أيهما أشد وطأة فالذين يحكمهم الأجانب يعتقدون أن حكمهم أعداء دينهم فهم وحدهم العقبة في طريق رقيهم في هذه الحياة . والذين يحكمهم المسلمون يعلمون أن حكمهم بجملهم وبما يتهم وتبلم من عشق الاستبداد والسلطة المطلقة التي لا تكون الا لله هم العقبة الكبرى في طريق الحياة المليية بالاعتصام بجبل الله المتين، والاهتداء بكتابه المين، والجمع بذلك بين مصالح الدنيا والدين ،

ومن عرف الحكومتين ، وعجم عودي السياستين ، فهو أعلم بالحق ، وأجدر ببيان الفرق ،

الأجانب كما هم في بلاد المسلمين منهم القاسي الحائف كهولندا وفرنسا ومنهم اللين المتساهل كما نكثروا ولم يبلغ أشدها جورا ومنعاً للمسلمين من التعليم والترقية أن يحجب عنهم من كتب العلم والترقية ما يحرمه عليهم بعض الحكومات الاسلامية أو المسلمية ولكن محي الاصلاح من المسلمين يرجون أن يفلحوا حكوماتهم ويلزمها بالعدل والمساواة وترقية العلوم والعقول وحرية الاجتماع للخير ويرون الاجانب عقبة في طريقهم فان إكراه الحكم على ترك الاستبداد لا تمكن منه الامة المستعدة له الا بثورة داخلية والمسلمون يعتقدون ان الأجانب يتر بصون بهم الدوائر فاذا هم ثاروا على حكومة من حكوماتهم المستبدة اغتتم الاجانب هذه الفرصة فأوقعوا بالدولة وقضوا عليها فالاجانب عقبة في طريق المسلمين أينما ساروا وتوجهوا لافرق بين بلادهم المستقلة وبلادهم المستعمرة . وهذا هو السبب في مقت عامه المسلمين اسكل من يتكلم في عيوب الدولة العثمانية ولو كان صادقا قاصدا للاصلاح فاتهم

في الغالب يعتقدون ان اظهار عيوبها عون للاجانب عليها وقد يكونون مخطئين في اعتقادهم هذا وأنى لنا بالرجال العارفين الذين يكشفون للعامة عن وجه الصواب فيعرفونه معرفة اذعان؟

المرشدون الرسميون فينا جاهلون بشؤوننا وسياستنا وعون للحكام كيفما كانوا الآن لهم سهماً من سلطتهم وأصحاب الجرائد منا لاهم لأكثرهم الا الازدلاف الى الحكم ، والمخطوة عند العوام ، على أنهم لاحرية لهم في بلادنا المستقلة تمام الاستقلال ، ولو كانت هناك حرية لوجد من يفيد لاسيما في البلاد العثمانية فان البلاد لم تغل من العقلاء المحلصين .

هذا شأن السياسة في صدححي الاصلاح الحقيقي عن السعي اليه في طريقه وأما الجهل فلا حاجة الى بيان وجهه القبيح فان ضرره ما لا ينكره أحد في جملته ولا يتسع هذا المقال لتفصيله ،

لانيأس من روح الله ولا تقنط من رحمته فان حوادث الزمان تعمل لنا مالا نعمل لأفئسنا، ورب عدوان علينا لأجل إمانتنا، يكون سبباً من أسباب حياتنا، بينا في الجزء الماضي ان الحرب الروسية العثمانية قد أحدثت في المسلمين هزة حيوية كما قال حكيمنا رحمه الله وقد رأينا أثر هذه الهزة في هذا الشهر عند ما علم المسلمون بتهديد أوروبا للدولة العلية واحتلال أسطولها المختلطة لجزيرة (مدالي) لمل الدولة على تمكينهم من ادارة الولايات المكردونية حتى ان بعض فضلاء المسلمين في الهند (هو القاضي أمير علي الشهير) كتب الى التيمس أشهر الجرائد الانكليزية يبين سوء تأثير عمل أوروبا في نفوس المسلمين كافة ويندر بسوء العاقبة . على أن الشدائد والبلايا انما تكون محيية اذا عرفت الأمة كيف تستفيد منها فلندع لها أثرها وفضلها الطبيعي ولنبحث فيما يجب علينا أن نعمله لحياتنا المليية ، وكيف نجتنب مكافحة السياسة ومنازعة الجهل وهو ما نبينه في مقال آخر

